بين القوى الفلسطينية كافة. واذا كانت الاتصالات التي تعجلت انشاء المنظمة لم تتح الوقت الكافي لتحقيق هذا التوافق، فان الطموح ذاته بقي بعد التأسيس وما اعتوره من سلبيات، وظل يفعل فعله. هنا تبرز حقيقة ان التوافق الارادي مطلوب لانجاح أي تحالف من أي نوع، سواء في تنظيم واحد أو تجمّع تنظيمات أو جبهة وطنية، ولكن مشروع م.ت.ف. لم يكن مجرد شيء من هذا القبيل فحسب، بل كان أكبر، وكان لا بد من التغلّب على عقبات لاحصر لها قبل الوصول اليه. وقد تطلّب الامر تحقيق جملة متصلة من الخطوات، والمواءمة بين خصوصية الوضع وعموميته والتداخل القائم بينهما حتى يتوافق الجميع على العيش في كيان واحد.

ولأن من المستحيل، حتى في كيان له أهمية الكيان الفلسطيني وواجباته التحررية الكبيرة، تذويب الفروقات القائمة في المجتمع والمنعكسة في بناه السياسية، ثم لأن تأثير هذه الفروقات يشتد في الساحة الفلسطينية بوجود أطراف كثيرة جاهزة لاستغلالها، فقد اشتدت الحاجة الى التوافق الطوعي، أولنقل الى الالتزام الارادي لكي تقوم المنظمة، ثم لكي تنشط، ثم لكي تتطور وتلعب الدورين المنوطين بها، كهيئة سياسية وككيان في آن.

والواقع، كما أظهرته التجربة، ان انشاء المنظمة، في حد ذاته، كان هو المكسب الاكبر الذي حققه شعب فلسطين منذ تشرده. أمّا العثرات التي واجهتها المنظمة، منذ تأسيسها في العام ١٩٦٤ حتى قيام حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، فكانت كبيرة، وكان من الطبيعي ان لا تكون المنجزات المتحقّقة على الارض كثيرة، اذا ما راعينا حجم الاعتراضات الفلسطينية المتنوعة، والمصاعب العربية، والعداء الاسرائيلي.

تطوّر التجربة وتشابكها بعد العام ١٩٦٧

لقد أفرزت الشروط التي تأسّست فيها المنظمة قيادة تمثّلت أغلبيتها التجربة الديمقراطية للحركة الوطنية الفلسطينية قبل العام ١٩٤٨، وأضافت اليها الموقف المعادي أو غير المحبّذ للحزبية، أي للتعددية، والميال الى الهيئات ذات التكوين الفضفاض أو الهلامي، حيث يتم التستر على الفروقات الحقيقية بالتشبث بالشعارات العامة واستدراج الولاء الجماهيري لاشخاص القادة. وضمّت القيادة، بحكم شروط النشأة، أيضاً، أقلية من ممثلي القوى المستجدة التي حملت طموحات بتثوير المنظمة واقامة هياكل تنظيمية ديمقراطية تدعمها. ومنذ البداية، نشب الصراع بين الجانبين، وأثمر هذا الصراع منجزات قليلة تمثّلت في حمل المنظمة على انشاء ما عرف باسم التنظيم الشعبي الذي يجرى بناؤه بالانتخاب من قبل المنتسبين اليه طوعاً، وحملها، كذلك، على تشجيع تطوير الاتحادات القائمة وانشاء اتحادات قطاعية جديدة. غير ان الغلبة تحققت، في نهاية المطاف، للاغلبية المحافظة، فبهت دور التنظيم الشعبي وتوقف تطوره عند خطوات التأسيس الاولى، ووجدت الاتحادات القائمة نفسها في صراع، من هذا النوع أو ذاك، حول هذه المسألة أو تلك، مع المتنفذين في القيادة. وبالاجمال، لم تتمكن قيادة المنظمة من اجتذاب القوى الفلسطينية المشبعة بروح عصرها، والرافضة لأسس الولاء الشخصي أو البلدي أو العشائري؛ كما لم تنجح في اجتذاب القوى الراغبة في العمل المسلّح والتي شرع بعضها في ممارسة هذا العمل بالفعل مع مطلع العام ١٩٦٥. وهكذا بقيت قوى فلسطينية كثيرة وهامة خارج اطار المنظمة ومعارضة لسياسة قيادتها، وأظهرت قوى من التي عملت في اطار المنظمة ضيقها بممارسات القيادة، وانصبّ جانب كبير من الانتقادات على غياب السلوك الديمقراطي في العلاقات داخل م.ت.ف. والتصرّفات الفردية لقيادتها، وكان الكثير من هذه الانتقادات، الى